كلمة التحرير

واجب الوفاء للمرحوم عبد الوهاب المسيري

هيئة التحرير

التاريخ البشري توثيق لما يختاره المؤرخ ويَعُدُّه مهمّاً من الأحداث والأفكار والأشخاص. ويتأثر عمل المؤرخ واختياره بكثير من العوامل، التي تختص بعلمه وخبرته، أو برؤيته وتحيزاته، أو بشخصيته وتكوينه النفسي، أو بالبيئة السياسية والثقافية السائدة في عصره. من أجل ذلك لا تنال بعض الأحداث أو الأفكار أو الشخصيات من الاهتمام ما تستحقه من ذكر في صفحات التاريخ، على الرغم من أنها كانت على قدر كبير من الأهمية في زمانها. وعلى العكس ربما يجد بعضها الآخر ذكراً كثيراً واهتماماً واسعاً، لكن الأجيال التالية لا تلقي له بالاً.

وقد شهد التاريخ الإسلامي في مراحله المتتابعة شخصيات في ميادين العلم والأدب والفلسفة والسياسة، مما تفاوت الاهتمام بها وتقدير أثرها من زمن إلى آخر. بعض هذه الشخصيات اقتصر الاهتمام بها في حياتها، ثم طواها النسيان، وبعضها لم يعرف الناس فضلها وأثرها إلا بعد موتها. ولعل هذا التفاوت في حظ الشخصيات من الاهتمام، يكاد يكون ظاهرة عامة في حياة الشعوب في التاريخ القديم والحديث.

هذا العدد من مجلة إسلامية المعرفة خاص بالمرحوم عبد الوهاب المسيري. وقد احتوى من البحوث في شأنه ما يسمح به عدد واحد من المجلة، ولذلك لن تكون مادةُ هذا العدد كافيةً لأداء حقِّ المسيري وواجب الوفاء له. لكنَّ هدفنا هو التذكير بهذه الشخصية التي لم تُعرف في ميادين الفكر الإسلامي إلا قليلاً، فموضوع تخصصه الأكاديمي كان الأدب الأمريكي، وفي التأليف مهتم بالفكر الغربي، والحركة الصهيونية على وجه الخصوص، وفي السياسة مناضل ومعارض لنظام الحكم، أيام الرئيس المصري السابق مبارك، بل إن بعض محبي المسيري يستنكرون أن ينسب إليه الاهتمام بالفكر

الإسلامي. ولذلك فإن الواجب الأكاديمي الإنساني المتصل بالتأريخ للمسيري، والواجب الأدبي والخلقي المتعلق بأمانة العلم والمتصل بالجوانب الأخرى من حياته واهتماماته، تفرض أن يتولى الأوفياء له، توثيق صلته بالفكر الإسلامي المعاصر وإنجازاته فيه.

انضم المسيري إلى المجلس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في مكتب المعهد في القاهرة الذي ترأسه الشيخ محمد الغزالي حتى تاريخ وفاة الأخير، يرحم الله الاثنين. وكان هذا المجلس يضم عدداً من أبرز مفكري مصر، الذين لا شك في انتسابهم إلى الفكر الإسلامي. كما أصبح بعد ذلك عضواً في المجلس العلمي العالمي للمعهد، وتواصلت صلته بالمعهد وبرامجه ونشاطاته حتى تاريخ وفاته. ولكن ذلك لم يمنعه من الاحتفاظ بصلات جيدة مع كثير من الشخصيات الوطنية والقومية، في دوائر الفكر والثقافة والسياسة.

لقد كان من أهم ما شارك به المسيري في نشاطات المعهد هو إعمال الرؤية التحليلية النقدية للفكر الغربي، والكشف عن النماذج المعرفية الكامنة في هذا الفكر، وتحيزاته في مجالات العلوم الطبيعية واللغوية والاجتماعية والإنسانية. وقد أوكل المعهد إلى المسيري مهمة الإدارة العلمية للمؤتمر الأول للتحيز عام ١٩٩٢م، الذي نظمه المعهد بالتعاون مع نقابة المهندسين في مصر، كما أوكل إليه المعهد كذلك مهمة الإدارة العلمية للمؤتمر الثاني للتحيز عام ٢٠٠٧م. وكان للمسيري إسهام مميز في الجلسات المتوالية لفريق من العلماء الذين تواصلت لقاءاتهم مدة سنتين لإنجاز كتاب المنهجية الإسلامية.

والقارئ لكتابات المسيري يلحظ الهمَّ الفكري الذي يتجاوز ظواهر الأحداث إلى عمق التحليل، ومقادير الكم إلى نوعية الكيف، وسطحية الوصف إلى عمق التفسير، وسرد الوقائع إلى عمق التفكير، ولذلك لا غرابة أن يجمعه هذا الهمُّ الفكري مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا سيما في البحث عن الرؤية الكونية التوحيدية في الفكر الإسلامي، والكشف عن الرؤية الحلولية ونماذجها المادية غير الإنسانية في الفكر الغربي،

وتشكلاته التي لا تفهم إلا في سياق الروية الكونية العالمية لتاريخ الأفكار، ودورها في الظواهر الحضارية البشرية.

في تموز ١٩٩٤ استضاف المعهد العالمي للفكر الإسلامي-مكتب الأردن المرحوم المسيري للحديث عن "العلمانية: نموذج تفسيري جديد"، فتحدث مطولاً عن القصور الفكري السائد في العالم العربي والإسلامي بخصوص العلمانية، التي يحصر معناها في كثير من الأحيان في دائرة ضيقة؛ فصل الدين عن الدولة، مع العلم بأن المعنى الأساسي على المستوى النظري وعلى مستوى الممارسة التاريخية، هو إعمال رؤية للعالم تستند إلى مرجعية مادية بحتة تعلي من شأن الدنيا زماناً ومكاناً –هنا والآن، وترتكز إلى نقطة داخل هذا العالم المادي الذي يكتفي بذاته، ولا يحتاج إلى مرجعية متجاوزة من خارجه، وتجعل الإنسان هو المقياس لكل شيء، ومن ثم تُقصي مرجعية الدين إقصاءً كاملاً، حتى لو لم تُنْكِرْه.

ومع ذلك فإنَّ المسيري ميّز بين نوعين من العلمانية، سمّى الأول منهما "العلمانية الجزئية"، وتعني قيام المجتمع على المؤسسات المدنية، واحتكامها إلى القانون المدني الوضعي بما في ذلك المؤسسة الدينية، التي تمارس عملها ضمن قواعد النظام الديمقراطي في المجتمع كله. والنوع الثاني من العلمانية عند المسيري هي "العلمانية الشاملة" التي هي "رؤية كلية للعالَم"؛ أي فكرة متكاملة عن الكون والإنسان والحياة، تتحكم ليس في شؤون المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية... وحسب، وإنما تتجاوز ذلك لتعيد بناء تصور الفرد لنفسه وتنزع عنه البعد الروحي، وتحوسله؛ (أي تحوله إلى وسيلة) حتى يصبح مادة استعمالية مثل سائر الموجودات الطبيعية، وتصبح العلمانية في النهاية هي "الدين الطبيعي".

وفي عام ١٩٩٨م نظم مكتب المعهد في الأردن حلقة دراسية بعنوان "نحو نظام معرفي إسلامي"، وقد أُجّل موعد عقد الندوة عندما تبيّن أن المرحوم المسيري قد أصيب بجلطة دماغية، أثّرت في قدرته على الكلام، ثم عقدت في موعد لاحق بعد أن أصبح

المسيري قادراً على الحضور. وقد أشفق المشاركون في الندوة على المسيرى لما لاحظوه من صعوبة في الكلام. وكان حرصنا على مشاركة المسيري نابعاً من رغبتنا في الاستماع إليه أولاً حول مفهوم النظام المعرفي، قبل الدخول في مناقشات أخرى تتعلق بمصادر النظام المعرفي وأدواته وتمثلاته في العلوم، وأدبياته في التاريخ الإسلامي، وموقعه في الصراع الفكري والإيديولوجي والسياسي المعاصر، وغير ذلك من الموضوعات والقضايا المعرفية.

وقد أعدّ المسيري مداخلة مكتوبة،[١] أوضح فيها رؤيته للدلالة التي يفضِّل أن تعطى للموضوع الذي يُعَدُّ موضوعاً معرفياً، في مقابل ما يعد سياسياً أو اقتصادياً أو تاريخياً. وقد أجرى المسيري في ورقته مقاربة بين المعرفي والإبستمولوجي والميتافيزيقي، وعرّج على الدلالات التي تعطيها مرجعيات الفلسفة وتاريخ العلوم والأفكار، والمعاجم الإنجليزية والفرنسية، واختار أن يحدد معنى المعرفي من دلالات المعجم العربي، الذي يحدد دلالة المعرفة بأنها: "إدراك الشيء على حقيقته... وحيث إن ذلك يعني ضرورة التجريد للوصول إلى المعنى الكلي أو إلى النموذج الكامن، فإن عبارة مثل "المستوى المعرفي" تعني المستوى الذي يتم فيه إدراك الحقيقة الكلية والنهائية الكامنة وراء ظاهرة أو نص ما. ويتم ذلك من خلال عملية تجريدية تزيح جانباً التفاصيل التي يراها الباحث غير مهمة، وتبقى السمات الأصلية الجوهرية للشيء، التي تشكِّلُ في واقع الأمر إجابةَ النص أو الظاهرة على الأسئلة الكلية والنهائية... وهي تدور حول الإنسان والإله والطبيعة."

وبيّن المسيري أنَّ أيَّ تحليل سياسي أو اقتصادي يحاول الإجابة عن الأسئلة السياسية أو الاقتصادية يكشف في التحليل المعرفي المتعمق بعداً كلياً ونهائياً، مهما بلغ من الحيادية والتجريدية والسطحية. وضرب المسيري أمثلة متعددة على ما يُعدُّ قضايا معرفية، مقابل ما يُعدُّ قضايا أو مسائل أو أعمال غير معرفية: سياسية أو اقتصادية أو خيرية، أو أخلاقية، إلخ.

---

[١] المسيري، عبد الوهاب. "في أهمية الدرس المعرفي" في: **نحو نظام معرفي إسلامي**، تحرير: فتحي حسن ملكاوي، عمان/الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٠م، ص ٤١-٦٠.

وأوضح المسيري أهمية الدرس المعرفي بالتأكيد أنّ كل إنسان يستخدم نماذج معرفية تحوي مسلمات كلية ونهائية بوعي أو دون وعي. وإذا كان النموذج الفقهي الإسلامي التقليدي قد نما وتطور داخل المجتمع الإسلامي، وكانت إجابات العالم والفقيه تستند إلى النموذج المعرفي الإسلامي الكامن الذي يتلبَّس الواقع الحضاري للمجتمع كله، فإنَّ العالم والفقية والمفكر المعاصر، لم يَعُد يتمتَّع بتلك الميزة، وأصبح عليه أن يقوم بعملية التحليل والتجريد ليستبعد المؤثرات غير الإسلامية التي أحاطت بالمجتمع المعاصر، واخترقت كثيراً من مفاهيمنا، وأنماط حياتنا، ومشاعرنا.

وقد كانت مداخلة المسيري في الحلقة الدراسية المذكورة نموذجاً من التحليل المعرفي الذي يتصف بالعمق، مقابل ما يعرف في كثير من الأعمال والممارسات التي تقف في التحليل عند السطح القريب المباشر. ودعا إلى تطوير النشاط المعرفي الإسلامي، الذي يمكِّن المفكر المسلم من الوصول إلى مقولات تحليلية ذات قدرة تفسيرية عالية.

وثمة مناسبة ثالثة استضاف فيها مكتب المعهد في الأردن المرحوم المسيري، تلك هي المؤتمر الذي نظمه المعهد بالتعاون مع الجامعة الأردنية ووزارة الثقافة الأردنية، وعقد في تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٨م. وقد وجهت الدعوة إلى المسيري ليكون ضيف الشرف في المؤتمر، وليلقي محاضرة المؤتمر في الجلسة الافتتاحية، ووافق على ذلك وأرسل ورقة مطولة بعنوان "من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان"، وقد وافاه الأجل في يوليو ٢٠٠٨م قبل انعقاد المؤتمر، فحافظت إدارة المؤتمر على موقعه في برنامج المؤتمر بوصفه ضيف شرف المؤتمر، وعرضت الدكتورة هبة رؤوف خلاصةً لبحثه المطول في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر.

كان موضوع البحث هو الإنسان في الفكر المعاصر، وقد ميَّز المسيري بين رؤيتين للإنسان تذهب الأولى منهما إلى أنّ الإنسان كائن مادي محض، والثانية إلى أنه كائن مركب من عناصر مادية وعناصر غير مادية. وميّز كذلك بين الإنسان والطبيعة على

أساس المرجعية التي يستند إليها التمييز. وهو يلاحظ أنّ معظم النصوص الفلسفية الغربية الحديثة تستند في رؤيتها للإنسان إلى مرجعية طبيعية مادية؛ إذ تكون الطبيعة فيها نظاماً مكتفياً بذاته، وتوجد مقومات وجوده وحركته داخله، وهو بذلك "نظام واحدي مغلق". والإنسان في هذا النظام خاضع لقوانين الطبيعة وحتمياتها، وبدلاً من ثنائية الإنساني والطبيعي، تظهر "الواحدية الطبيعية/المادية."

لكن المسيري وهو يتجاوز هذه الرؤية الاختزالية للإنسان ويُعمل رؤيتَه الإيمانية، وتخصُّصَه في الأدب، أكد على المسافة القائمة بين الإنسان والطبيعة، وبين الخالق والمخلوق، وبين الروح والجسد، وغير ذلك من الثنائيات الأساسية في الكون. ومع أن النموذج الفعال في الحضارة الغربية الحديثة هو ذلك النموذج الواحدي المادي، وهو النموذج المسيطر على النظم السياسية والاقتصادية الذي يعلن الجميع ولاءهم له، فإن كثيراً من الناس في الغرب يسلكون طريقة تتنافى مع هذا النموذج؛ فتجد ثنائيات الخير والشر، والمقدس والمدنس والمطلق والنسبي، حاضرةً بقوة الإدراك الفطري لثنائية الإنسان والطبيعة، وتؤكد العلاقات الإنسانية الفكرية نفسها بطريقة تتحدى النموذج الفعال المسيطر.

ويختم المسيري ملاحظته بروح متفائلة كعادته، مؤكداً: "أن العنصر الرباني في الإنسان لا يمكن محوه... وأن هذا العنصر الرباني اللصيق بإنسانية الإنسان وفطرته هو ما يمنع النموذج الطبيعي/ المادي من التحقق الكامل، ومن الوصول إلى اللحظة النماذجية ونقطة الصفر المادية، إلا في لحظات نادرة. وإذا كانت اللحظة النماذجية العلمانية هي لحظة حلول الإله في المادة حلولاً كاملاً، وكمون المركز فيها، وتغلب النزعة الجنينية على الإنسان، فإنَّ الإله الخفيَّ هو تعبير عن أنَّ الإله حي لا يموت، وأن ما حدث ليس موتاً للإله نتيجة حلوله في المادة، وتوحدّه بها، واستيعابه فيها (فهو متجاوز للطبيعة والمادة)، وإنما هو تعبير عن أنَّ نسيان الإنسان للإله أدَّى إلى نسيان الإنسان لذاته المركبة الربانية:

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩)... ولكنه، على أية حال، ليس نسيانا كاملا؛ إذ تظل ذاكرة النور الذي يبثه الإله في الصدور قائمة في أعماق وجدان الإنسان."[٢]

لم يكن هدفنا من هذه الإشارات الثلاث رصد جميع المناسبات التي ظهر فيها المرحوم المسيري في نشاطات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فهي كثيرة جداً، وشملت نشاطات المعهد في كثير من الأقطار في أمريكا وأوربا وإفريقيا وآسيا. وإذ نكتفي بما ذكرنا منها، فإننا نؤكد مرة أخرى الواجب الملقى على عاتق أهل الثقافة والفكر والأدب والسياسة؛ واجب الوفاء للمسيري، فقد كانت له آثار متميزة في هذه الميادين، يرحمه الله. وما هذا العدد الخاص من مجلة إسلامية المعرفة إلا عمل متواضع في أداء هذا الواجب.

إن بحوث هذا العدد لا تغطي جوانب المسيري الفكرية والمعرفية كلها، ولكن حسبها أن تسلط الضوء على بعض المعالم المنهجية التي اشتُهر بها؛ إذ رسم الدكتور عبد القادر مرزاق في بحثه الموسوم بـ: "كتابات عبد الوهاب المسيري: المداخل الكبرى لولوج فكره" المنهجية الناجعة لقراءة كتابات المسيري، وفهم أفكار المسيري، واستيعاب مفاهيمه ومصطلحاته في سياقاتها المختلفة.

وثمة قراءة معرفية لمنهج المسيري، المستند إلى مرجعية معرفية توحيدية، بلورت نظرة خاصة تجاه الخالق والمخلوق؛ إذ رصد بحث الدكتور الحاج دواق المعنون بـ: "المنهج المعرفي التوحيدي عند عبد الوهاب المسيري: مدخل إلى الإبستمولوجيا التوحيدية" معالم التوحيدية عند المسيري، وناظمها النظري، الذي شكّل نواة لإبستمولوجيا بديلة فاعلة، تُنَزِّهُ الإلهَ وتضع المخلوق في منزلته الطبيعية.

ولعلَّ الحديث عن الإنسان من أكثر المفردات التي دارت في معظم كتابات المسيري، نظراً للصراع الفكري الكبير الذي نشب داخل المنظومة الغربية، لفلسفة الوجود الإنساني،

[٢] المسيري، عبد الوهاب، "من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان" ورقة قدمت في مؤتمر: "**الفلسفة في الفكر الإسلامي**" الذي نظمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع الجامعة الأردنية ووزارة الثقافة الأردنية، في العاصمة الأردنية عمان في تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٨م.

وماهيته، وحقيقته، وعلاقته بالخالق، ومركزيته في الكون. وقد حاول الأستاذ رحماني ميلود في بحثه: "الإنسان في المرجعية المتجاوزة عند عبد الوهاب المسيري" أن يجلّيَ قراءة المسيري النقدية لموضوع الإنسان في الرؤية المادية الغربية، من خلال تفكيكه للمنظومة الفكرية الغربية، ويكشفَ في الوقت نفسه عن البناء المعرفي الإسلامي الذي انطلق منه المسيري في بلورة التصور الإسلامي للإنسان في هذا الكون.

وحاولت دراسة الدكتوره رزان محمود إبراهيم الموسومة بـ: "رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية: دراسة في المقاصد والمنهج" استحضار الآليات التي اعتمدها المسيري في تحليلاته للنماذج المعرفية؛ إذ كشفت عن المنطلقات التأسيسية، التي انطلق منها المسيري في فهمه للوقائع التاريخية والأدبية والسياسية...، ومدى نجاح منهج دراسة الصور المجازية في تحليل الظواهر، لا سيما تلك المتعلقة بالعقل الصهيوني، والحداثة، وما بعد الحداثة.

والله من وراء القصد.